أنطونيو سكارميتا في "فتاة الترومبون":

سرد آسر يختزل تاريخ تشيلي المعاصر

ابراهيم حاج عبدي
دمشق

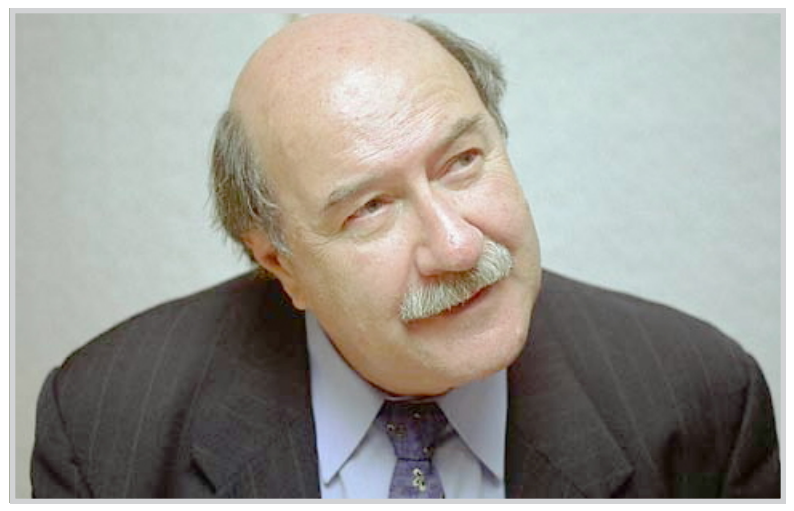
أنطونيو سكارميتا

يعد الروائي التشيلي أنطونيو سكارميتا واحدا من أهم روائيي قارة أمريكا اللاتينية التي أَثْرت الرواية العالمية بأعمال روائية مدهشة، كشفت عن أسماء لا يمكن إغفالها لدى أي حديث يتناول الرواية العالمية المعاصرة، أسماء مثل غابرييل غارسيا ماركيز، وإيزابيل الليندي، وجورجي أمادو، وبورخيس، وباولو كويلو، وماريو بارغاس يوسا، وألفارو موتيس وسواها من الأسماء التي ترجمت أعمالها إلى مختلف اللغات، ومنها العربية، إذ كان للمترجم صالح علماني إسهام كبير في هذا المجال، ودور بارز في تعريف القارئ العربي بآداب أمريكا اللاتينية المكتوبة بالإسبانية، كما هو الحال مع رواية "فتاة الترومبون" لسكارميتا التي ترجمها علماني، مؤخرا، وصدرت عن دار المدى بدمشق.

ولد سكارميتا في مدينة أنتوفاغاستا التشيلية سنة ١٩٤٠م، وقد حقق نجاحا واسعا من خلال روايته المعروفة "عرس الشاعر" التي لاقت صدى طيبا، غير أن روايته "ساعي بريد نيرودا" التي حولت إلى فيلم سينمائي رشح لعدة جوائز أوسكار، جلبت له المزيد من الشهرة، ووضعته في مصاف الروائيين العالميين الذين تنتظر دور النشر في مختلف عواصم العالم أعمالهم الجديدة، بغرض ترجمتها، وهذه نعمة لا يحظى بها إلا عدد قليل من الكتاب على مستوى العالم، من أمثال سكارميتا الذي ينظر إلى الكتابة بوصفها "تمرينا على السعادة".

يسرد سكارميتا في روايته "فتاة الترومبون" ملحمة سكان ساحل ماليسيا على البحر الأدرياتيكي الذين هاجروا إلى تشيلي هربا من الحروب التي عصفت بالقارة الأوربية في النصف الثاني من القرن العشرين، ففي روايته "عرس الشاعر" روى أسباب ذلك الهروب وكشف عن المصير الغريب الذي تعرض له أبطال تلك الرواية، وفي روايته "فتاة الترومبون"، هذه، يواصل الروي، ولكن هذه المرة على الأراضي التشيلية عبر حكاية فتاة صغيرة جلبها عازف ترومبون في نهايات الحرب العالمية الثانية من سواحل البحر الادرياتيكي الأوربية التي تعاني من ويلات الحرب التي قضت على جميع أفراد أسرة تلك الفتاة الصغيرة، إلى مدينة انتوفاغاستا التشيلية الآمنة، والفقيرة حيث يعيش جدها المفترض استيبان كوبيتا الذي هرب، بدوره، من تلك السواحل في زمن مضى، ووصل آمنا، ليمارس حياته بهدوء، وسلام. لا يسأل الجد كثيرا عن حقيقة أن هذه الطفلة الصغيرة هي حفيدته أم لا، بل ربما كان بحاجة ماسة إلى حفيدة تسلي وحدته البعيدة في تلك القارة النائية، وتذكره بماضيه الجميل في تلك السواحل الأوربية التي هجرها قسرا، فيقبل، بسهولة، وعن طيب خاطر، هذه الهدية الإلهية ويتواطأ مع حفيدته المزعومة في صنع حياة جديدة تجد تفاصيلها في هذه الرواية.

الرواية مكتوبة بضمير المتكلم، على لسان فتاة الترومبون، تلك التي تسمى آليا ايمار كوبيتا التي تتناول سيرة حياتها في هذه الصفحات بعد أن تصالحت مع واقعها، ولم تعد تهتم كثيرا بجذورها الأوربية، بعد أن أفشل الجد محاولتها الوحيدة للهرب على إحدى السفن التي تمخر المحيط باتجاه أوربا. هي الآن فتاة تشيلية تتعلم في مدارسها ولها صداقات واسعة، واندمجت مع هذا الجو بصورة تامة رغم الاختلاف في الشكل بينها وبين صديقاتها، فهي شقراء، وهن سمراوات، "فقد كان أقصى ما أتطلع إليه هو أن أكون مثلهن. فكنت أريد، في المقام الأول، أن تتحول بشرتي إلى السمرة" كبشرة أهالي تلك البلاد، وبعد ذلك "كانت رغبتي الثانية هي امتلاك أب وأم. أو أن أعرف اسميهما في الأقل"، ولن تعرف قطعا اسميهما، ولن يتسنى لها التأكد من أن هذا الشيخ الوقور الذي احتضن كآبتها، هو جدها في الواقع أم لا.

تتحدث آليا ايمار عن تلك العلاقة الخاصة التي ربطتها مع الجد، وهي تكاد تنظر إليه كقديس فتصف ملامحه وحركاته وصمته وغموضه "فرغم أن الريح الهائجة قد دفعته، رغم إرادته، نحو هذه الضواحي الهاجعة، فقد مارس العجوز بقايا حياته بوقار. لم تكن هناك، قط، أي لطخة تلوث ياقات قمصانه الناصعة والمنشاة التي يرتديها أيام الآحاد. وكانت عقدة ربطة عنقه المنقطة، كبيرة مليونيرية، ومنديل سفير يبرز من جيب سترته العلوي، وابتسامته دائما خفيفة، وكانت موسيقا مذياعه لباخ، أو شوبير أو شومان...لقد كان جدي فقيرا، ولكنه لم يكن عاديا"، وبعد انتقال الأسرة من أنتوفاغاستا إلى العاصمة سنتياغو بغرض علاج الجد يموت الجد "لم يكن الموت مناسبا له بأي حال. لقد بعث في الإحساس بأنه سيترك شيئا معلقا، غير ناجز"، فتقوم جوفانا، صديقة الجد الراحل، برعاية الفتاة.

ولعل الهوس الوحيد الذي لم تستطع الفتاة مقاومته هو هوس التعلق بالسينما، فقد كانت مواظبة على متابعة الأفلام التي تعرضها سينما القصر في سنتياغو، وهي تتذكر الآن بصفاء تام عناوين الأفلام: "المدرعة بوتمكين"، "ملكة أفريقيا"، "كازابلانكا"، "نزهة"...وتحتفظ في مخيلتها بصور الأبطال كاترين هيبورن، همفري بوغارت...وتتذكر زئير أسد مترو غولدن (في إشارة إلى شركة الإنتاج السينمائية المعروفة)، وتعبر عن أمنيتها الغالية "لو كنت مليونيرة لاشتريت عتمة سينما القصر"، وهي ترى كل شيء في السينما أجمل من الحياة فتتحدث بشغف عن تلك العتمة التي منحتها ساعات من السعادة ما كانت المدينة البائسة سنتياغو قادرة على منحها إياها، فتتطلع بشغف للذهاب إلى نيويورك كي تعيش حياة أبطال السينما، لكن الأمنية تبقى مؤجلة، كما أن الرواية لا تخلو أيضا من المؤثرات الفرعية مثل موسيقى الجاز التي يعبر سكارميتا في اكثر من لقاء، عن حبه الشديد لها، ويستحضر الروائي على لسان بطلته أسماء كتاب وشعراء برزوا على مستوى العالم، فها هو يصف بيت الشاعرة التشيلية التي حازت جائزة نوبل غابرييلا ميسترال، وعن موتها التراجيدي، كذلك يتحدث عن منزل شاعر تشيلي الأكبر بابلو نيرودا الذي ألهب بقصائده قارة أمريكا اللاتينية بأسرها، والتي كانت تتطلع إلى الانعتاق من استبداد الديكتاتوريات العسكرية، فالرواية ترويها فتاة مثقفة وواعية، وهي لا تستطيع أن تسقط من حسابها الحركة الثقافية والأدبية والنقدية في تلك الفترة التي تتناولها الرواية إذ نعثر كذلك على أسماء أدبية بارزة مثل إدغار آلن بو، ووالت ويتمان، وهرييت بيشر ستاو صاحبة رواية "كوخ العم توم" وغيرها من الأعمال المسرحية والروائية والسينمائية التي اشتهرت في تلك الفترة ولم تزل تعتبر تحفا فنية كلاسيكية حاضرة.

الرواية، بهذا المعنى، ترصد جزءاً من تاريخ تشيلي في الخمسينيات والستينيات، تتحدث عن حياة البشر في تلك البلاد النائية، عن الطباع والعادات والتقاليد، والطقوس...عن الهواجس والأحلام وهي تجري على خلفية أحداث سياسية ضخمة شهدتها تلك البلاد لتنتهي الرواية بوصول الرئيس اليساري سيلفادور الليندي إلى السلطة في العام ١٩٧٠ م إذ ينتهي السرد عند هذه اللحظة التاريخية الحاسمة في حياة التشيلي، ويعلق سكارميتا على اختيار هذه اللحظة بالقول "كان يجب أن اصمت عند هذه اللحظة لأني أنتظر مساهمة القارئ الذي سيعطي شكلا دراميا للقصة، فالقارئ يجعل هناك توازنا بين ما يقال وما يسكت عنه.إن مشاركته لهي شيء حيوي".

ينجح سكارميتا إلى حد بعيد في استحضار جانب من تاريخ بلاده، وخصوصا في الجانب الاجتماعي إذ يقدم شخصيات من لحم ودم تظهر في صفحات هذه الرواية، وينجح، كذلك، في رصد الحراك السياسي والثقافي الذي شهدته هذه البلاد في فترة ما سمي بـ "الحرب الباردة"، وهو هنا لا يعبر عن قناعات أكيدة وحاسمة بقدر ما يظهر الجو السياسي والثقافي العام، وتلك الصراعات التي رافقت ترشيح سلفادرو الليندي لرئاسة التشيلي وكيف وصل إلى الحكم، ومن هنا فان الرواية، إلى جانب انطوائها على المتعة الأدبية، فإنها تنطوي كذلك على رسم بانوراما واسعة لبلاد تبدو لنا نائية ومجهولة، ونحن الآن إذ نمضي مع سكارميتا في هذه الرواية نحو تلك البلاد الممتدة آلاف الكيلومترات على سواحل المحيط الهادي، نكتشف عالما روائيا يمور بالصخب، والحب، والبؤس، والمعاناة، والتمرد، والاحتجاج، وعشق الحياة...إذ يستثمر سكارميتا في ذلك خبراته وتجاربه التي أعانته لتقديم حياة تستحق القص.

حين نكون في بغداد

كامل شياع

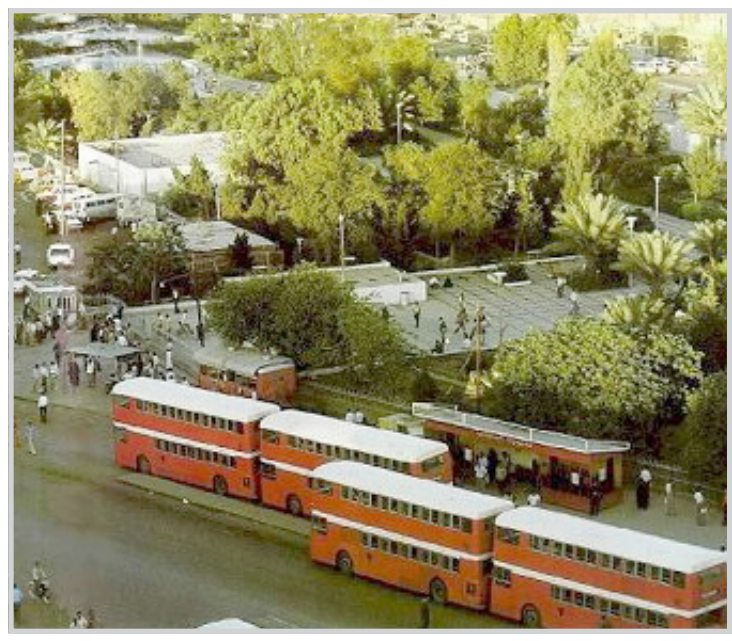
بغداد

إلى إلياس

أكتب إليك من البيت المجاور لبيتك الصغير. فأنا، منذ ثلاثين شهراً، أختفي هناك... هرباً من البرد والمطر، واحتجاباً عن عيون أهل لويفن الذين ملوا رؤية الأجانب بينهم.

من ذلك البيت أخرج من وقت لآخر لألقاك حاملاً حقائب السفر، متظاهراً بالقدوم من بغداد. وما هي إلا أيام حتى يحين موعد سفري، فيرشح في النفس حزن ثقيل، وأختفي من جديد. إنها لعبة مشوقة، جربتها وأنت تلعب مع أقرانك لعبة الإستغماية. أي قلق يحمل الإختباء؟ أي حماس يثير إعلان الظهور؟ هذه هي لعبتي المتواصلة معك منذ أن أوهمتك بأنني عائد إلى بغداد. لكنها ليست اللعبة الوحيدة بيننا، فأثناء الإختفاء لا أكف عن مراقبتك من ثقب صغير في الجدار. كل مرة أكلمك بالهاتف، تتسلل نظراتي إليك من ذلك الثقب، فأراك وأنت تسرد لي أخبار يومك، أو تستمع إلى حكايات الجنون في بغداد.

في واقع الأمر، إن المسافة بيننا قصيرة لاتستحق عناء القياس. خمسة أمتار أو أربعة آلاف كيلومتر هي في النهاية أرقام لا معنى لها خارج عالم الحساب. وبغداد ولوفان هما أسمان على الخريطة لا أكثر. ولأن لكل إسم دلالة، دعني أخبرك عن إسم بغداد المشتق، حسب رأي بعض المؤرخين، من الفارسية وتعني البستان.... وهي عرفت في يوم من الأيام بدار السلام. غير إنها اليوم، للأسف، دار حرب كما تعلم. الصور الآتية منها تملأ الشاشات بمشاهد الرعب والخراب ولا تدع مجالاً للشك في ان الحياة فيها واقفة على كف عفريت. كل يوم من أيامها نذير بالنهاية... وكل حدث فيها إمتحان لطاقة التحمل القصوى. لعلك تستطيع أن تتخيل حالها من الصور والأخبار المفزعة المبثوثة عنها، إلا أن بغداد التي ألزمت نفسي بأن أكتب لك عنها هي عالم آخر. إنها المكان الذي استرحت فيه من عناء السفر الطويل والغربة الشاقة، إنها سنوات الطفولة والشباب التي رحت أقرأ بقاياها في الوجوه والأماكن والعادات، إنها كيمياء من أواصر مصيرية لا أملك مفاتيح حلها.

من وحي بغداد المطمورة خلف ركام صور الدم والحرائق، اوصيك:

أن تغادر البيت جذلاً دون خشية مما ستجلبه بقية النهار.. تذكر دائماً أن يومك العادي محروس بسلام نادر، أن تستنشق الهواء بعمق خاصة عندما تخترق حديقة المدينة أو تمر بجوار مشتل الزهور.... وحين تدخله توقف عند الأجمل والأغرب بين الزهور، إحفظ إسمه باللاتينية، ولامس أوراق النباتات الإستوائية.... واقطف غصناً مزهراً في طريق عودتك إلى البيت، أن تتملى السماء حين تكسوها الغيوم ... وحين تتلألأ فيها النجوم.... أرقص تحت مطر الصيف! وأسأل القمر عن سر الليل! أن تدعو أول قطة تراها في الشارع، لتربت على رأسها ... قبل أن تمضي في سبيلك، أن تتجول طويلاً في شوارع لويفن الصغيرة... وتذهب حتى نهاياتها لتتأكد من أن لا حواجز كونكريتية هناك، ولا أسلاكاً شائكة، ولا نقاط تفتيش ولا حرساً متأهبين لإطلاق النار... أن تخرج حين تشاء، لتتمشى أو تلعب أو تقصد دار السينما، ألا ترى الدم في الشوارع.... ولا بقايا جثث محروقة وسيارات محطمة، ولا ندوب الحروب الصغيرة على واجهات العمارات السكنية، ألا تتخيل ما حصل لركاب السيارة التي أمامك وقد ثقبها الرصاص، وتهشم زجاجها... وترك الموت العاصف أبوابها مفتوحة على مصاريعها، ألا تسمع رجّة إنفجارت قريبة، ولا يلازمك إحساس خطر وشيك،

ألا ينبهك دوي الإنفجارات البعيدة إلى حياة عبثية تفتك بأبنائها المتعبين، ألا يطاردك شبح الخوف مما هو مرئي أو غير مرئي، ولا تختبئ من رصاصة طائشة فتبتعد عن النافذة، وتهجر الحديقة والشرفة.

أن لا تحلم بإطلاق آخر رصاصة، وإنفجار آخر عبوة ناسفة، وغياب آخر إنتحاري،

أن تجلس عند المساء في غرفتك الهادئة، وتستمع إلى الموسيقى التي تحب. سوف لا يزعجك ضجيج طائرات مروحية دانية، ولا ترى الحمامات تفر مذعورة من بين أغصان الشجرة،

ألا تتوقع إنقطاع التيار الكهربائي ليحرمك من متعة القراءة، أو مشاهدة التلفزيون أو اللعب بالحاسوب، ولا تضطر إلى شرب قهوتك في الظلام، أو كتابة رسالة على ضوء الفانوس، أو تأجيل قراءة الجريدة ليوم آخر، أن لا تأخذك الريبة بجارك... ولا تخشى نظرات المارة. فليس هناك من يرصد حركاتك لقاء دولارات قليلة من عصابة تصطاد الرهائن فتقايضهم أو تنحرهم،

ألا ترتدي من الملابس إلا أجملها، ولا تشتري من الشموع إلا ما يضوع منه شذى العطور.

.....

.....

بين جسر باب المعظم وجسر الشهداء تمتد على جانب الرصافة بغداد القديمة. تحت ظلالها الأنيسة سنجلس يوماً لنسمع دقات ساعة القشلة، ونراقب اللقالق تحرس أعشاشها، ونتحسس حجارة مبانيها الصفراء. وتحت وهج الشمس البيضاء سنخطو نحو دجلة المتعب، المتأجج ابداً..... حينها سندرك سر بغداد دون صورة أو خبر....

فرصة الذئب

شعر: موفق محمد

أمن الحكمة ان تأكل لحمي؟!
حسناً كلهُ
وكل منه هنيّا
وأزدرد قلبي كما شئت
فهل تصبحُ انساناً سويّا؟
أم ستعطي ذلك الذئب الذي يلبسُ جلدكْ
فرصةً أخرى لكي يبدو نبيا؟

❖❖❖❖

أمن الحكمة ان تغرزَ في عينيَّ ظفرك؟
حسناً أغرزهُ
وأغرزهُ قويّا
وتأكدْ أنني أعمى
فهل تصبحُ إنساناً سويّا؟
ام ستعطي ذلكَ الذئبَ الذي يحفرُ قبركْ
فرصةً اخرى لكي يختالَ جباراً عتيّا

❖❖❖

أمن الحكمةِ أن تعطي لهذا الموتِ
ظهركْ؟
حسناً إعطِ
ودعْ موتي واطفالي خفيّا
وأنتقمْ من كل إنسانِ
فهل تصبحُ إنساناً سويّا؟
أم ستعطي ذلك الذئبَ الذي ينخرُ قلبكْ
فرصةً أخرى لكي يلقاكَ خسّيساً وطيّا؟

❖❖❖

أمن الحكمةِ أن تتركَ نهبَ الشرِ أصلكْ
حسناً دعْهُ
وكنْ نجماً طريّا
تلتويكَ الريحُ كالقشةِ ليّا
ثمَ تُعطيكَ عقالاً ذهبياً
ومرايا لترى
فوقَ بساط الكفرِ نفسكْ
حائراً تعوي
ولكنْ أين تهوي
أنتَ لا تعرفُ من كل الذي خَطط شيّا
صرتَ كالمنبتِ لا أرضاً
فهل تصبحُ إنساناً سويّا
ام ستعطي ذلك الذئبَ الذي يحرقُ جذركَ
فرصةً اخرى لكي يطويكَ طيّا؟